الحرية نسقا ثقافيا[1]

أ.د. عبد الله الغذامي / المملكة العربية السعودية

كم انا سعيد ان اتحدث اليكم وان كانت سعادتي مشوبة بشيء غير قليل من التأثر لأني اشعر بتأنيب ضمير من نوع عميق جدا ما كنت اتصور ابدا ان رجلا كريما وفاضلا مثل الاستاذ الدكتور ثائر العذاري يتصل بي ويعرض علي ان احضر إلى العراق وإلى جامعة واسط للمشاركة في هذا المؤتمر، ماكنت أتصور ان دعوة مثل هذه بكل ما لها من معنى عميق في نفسي أن اجد اني ساعتذر لكن والله ما اعتذرت الا لظرف يحول بعمق شديد بيني وبين الاستجابة ولولا هذا الظرف لاتيتكم بكل ما املكه من طاقة ومن قوة ومن محبة اختزنتها في ضميري على مدى سنوات منذ طفولتي الاولى في عنيزة وحين اشير إلى عنيزة فاني اشير إلى بيئة اجتماعية في قلب نجد ليس فيها بيت الا ونصفه في العراق لا يوجد عائلة في عنيزة الا وأجزاء منها في اطرافها المباشرة واطرافها العميقة تاريخيا تكون في العراق ولذلك منذ طفولتي وانا في ضمير العراق لغة ومفردات واحاسيس وتاريخ لذلك لا يمكنني ان اعتذر عن العراق باي شكل من الاشكال لولا هذا الظرف الذي انا فيه. اقدر واشكر الاستاذ الدكتور ثائر العذاري وارجو منكم جميعكم ان تعذروني على هذا التاخر الذي لا يليق ابدا بعلاقتي ومحبتي بكم ولا يليق ان يحدث مني وعني وبي ولن اعذر نفسي فيه لكن هذه هي الظروف وانتم من يعذر

موضوعي سيكون عن الحرية بوصفها نسقا ثقافيا

مفردة الحرية مرت في تاريخ البشرية على مراحل عديدة جدا لم تاخذ معناها الفلسفي او الساسي الاجتماعي الا بعهود متاخرة لكن في القديم كانت الحرية تاخذ ابعادا رومنسية، الحرية التي ممكن ان نوصفها بالحرية الوردية يشير اليها ابراهيم ناجي "اعطني حريتي اطلق يدي" فيها بعد ذاتي رومنسي نستطيع ان نقول انه ذو قيمة وردية، طبعا البعد الوجودي الحر مقابل العبد كذلك البعد السياسي البحت الذي يعني الحرية مقابل

(1) هذه الكلمة وصلت اللجنة التحضيرية مسجلة تسجيلا صوتيا وقد تم تفريغها بالنص كما هي لتيسيرها للسادة المشاركين.

الاستقلال بمعنى الاستقلال من الاستعمار وظل في العالم العربي بالذات بفترة غير قليلة ان كلمة الحرية تعني التحرر من هيمنة الدول العظمى يعني شعار وحدة حرية اشتراكية كان يشير إلى وحدة الامة كدول والحرية كانت تشير بكل تاكيد إلى الاستقلال بمعنى انه حرية من هيمنة الدول الاخرى لكن علاقة الدولة بالشعب لم تكن واردة لا في الشعار نفسه ولا في الممارسة واذكر قصة رواها لي الاستاذ محمود امين العالم (رحمه الله) حينما اعتقلوا في ايام جمال عبد الناصر في بداية الستينيات من القرن الماضي ويقول ان هناك شيء يسمونه الحفلة والحفلة حينما يأتي سجين جديد ويستقبله زبانية السجن بالضرب واللكم ويسمونها الحفلة يعني استقبال من نوع خاص يلاقي فيها السجين الجديد كل انواع التعذيب والاهانة ويشتهر بانه مصطلح حفلة لهذا الاستقبال . فيذكر عن واحد منهم من فريقهم وهو في لحظة الحفلة بالضرب واللكم والتنكيل والتجريح اللفظي والجسدي .. الخ وكان يهتف لحظتها وهو تحت سياط العذاب يهتف بحياة جمال عبد الناصر هنا مفارقة طبعا، الذي يعذبه طبعا هم جنود عبد الناصر ونظام عبد الناصر لكنه يهتف لانه هنا يميز بزعامة رمزية يؤمن بها، والاذى الذي يطاله هو، فبالتالي يرى انه ليس قيمة في ذاته بمقدار ما انه ينتمي إلى مبدأ يراه مبدأ وطنيا تحرريا استقلاليا نهضويا ... الخ من الصفات . فبالتالي يهتف لمبدأ ويضحي بجسده وبمعنوياته من اجل المبدأ فكانت الحرية حينئذ هي هذه القيمة انه هناك زعيم او هناك دولة او هناك حزب او هناك نظام يمثل الامة وخلاص، باقي الامة ليست ممثلة فيه هو يمثلها وانتهى الامر فكان معنى الحرية ياخذ هذا البعد الذي نكاد نقول انه نوع من تضحية الانسان من اجل اي شيء اخر في حين ان الدولة لا تضحي من اجل الانسان ولكنها تاخذ بابعاد في علاقتها مع الاخرين في تكوين هذه الدولة تحت انها حرة و تظل كلمة حر وحرة والشعب وكلها صيغ اذا تأملناها الان ندرك انها ماكنت تعني الشعب ولا كانت تعني الحرية ولكن تعني معاني اخرى مما يجعلها قيمة نسقية في ذلك الحين وكان الكل يتجه باتجاهها بقناعة شديدة وهذا يشابه ما كان يجري في العالم كله ليس عندنا فقط لكن ربما نحن نستدعي ذاكرة قريبة عشناها مباشرة وانا عشتها انا كان احساسي بالناصرية والقومية العربية اكثر من احساسي بنفسي وبوطني، كانت هي عندي فوق كل شيء . و ان كنت انظر اليها الان بانتقاد لكن لم اكن انتقدها حينها كنت اشعر انها قناعة تامة مثلي مثل النموذج الذي ذكره الاستاذ محمود امين العالم عن ذلك المعنى للديمقراطية هذه المسألة الاولى كمدخل عن حالة المعنى في سالف عهده قبل ان يتعقد ويدخل في طور اعلى وادق و اوسع واكثر (تحت شعار)

تعددية وعمقا واشكالا من ذلك وساتناوله في المسألة الثانية .

المسألة الثانية ساتطرق فيها إلى مفهوم الحرية بعد ان اخذ دوره الاشكالي ويظل نسقا ايضا . دخل مفهوم الحرية لكي ليكون جزءا من بنية النظام السياسي والاقتصادي معا وكانت الليبرالية في عهودها القديمة كلها وفيها زمنها الحالي التي تسمى الليبرالية الجديدة تقوم على مفهوم الحرية لكنها حرية بالمعنى السياسي الاقتصادي وتفترض وجود علاقة بين الافراد مع بعضهم وبين الافراد والدولة والطرف الثالث ما بين الدولة والافراد ايضا والفكرة انها تنظم هذه العلاقة ولا شك ان هذا ادخل الفكر السياسي والفكر الاجتماعي والفكر المعاشي واقول الفكر المعاشي وليس فقط الممارسة ادخله في معنى ان يبدو جميلا جدا لكن اشكاليته عالية جدا ايضا بنفس الدرجة لكي نتصور الوضع ممكن نفترض الان هل الفرد بما انه فرد يحتاج كفرد لو افترضنا ان الفرد قيمة معزولة هل يحتاج إلى حرية ؟ , السؤال الاخر الذي يجعل السؤال هذا اوضح هل يحتاج إلى عدالة ؟ , السؤال الثالث الذي ايضا يوضح السؤالين السابقين هل يحتاج إلى مساواة , السؤال الرابع هل يحتاج إلى تعددية ثقافية لو بدانا نطرح الاسئلة الاربعة هذه متشابكة واحدا تلو الاخر سنلاحظ بسهولة ان الحرية لا يمكن ان تكون قيمة فردية لان الفرد لو عاش بمفرده فهو يتحرر من ماذا ؟ ولاجل ماذا ؟ ومن ماذا ؟

مما يعني انه لن يرد مفهوم حر او حرية الا اذا كان الانسان مع اخر واذا كان في علاقة مع اخر اذا كيف تتشابك العلاقات وكيف تستوي في مسار سليم لابد ان نضع المصطلحات الاربعة في سياق واحد حرية , مساواة , عدالة , تعددية ثقافية . اذا وضعناها في مسار واحد ممكن ان نبدا بالشروع بطرح نظرية تمكن من تحقيق هذه المعاني مجتمعة وهي ليست في وفاق لان الحرية والمساواة في لحظة من اللحظات سوف يتعارضان فحريتي ربما تؤدي إلى اضطهاد شخص اخر الا اذا كنت منحت حرية مساوية لحرية واذا منحته حرية مساواية لحريتي فمعناه اني اقيد نفسي ساضع قيودا كثيرة على نفسي لكي يكون هو حرا واكون انا حرا ايضا فلكي يكون الطرف الاخر حرا وانا حر لابد ان يتنازل كل واحد منا عن شيء من حريته من اجل الاخر , مما يجعل الحرية ليست حرية وان ظنناها حرية لان شرط المساواة سوف يقيد هذه الحرية ويحولها من حرية فردية إلى حرية تشاركية , حرية تفاوضية بلغة اخرى ايضا مع المعنيين معنى الحرية والمسواة لايمكن لهذه العلاقة ان تقوم الا تحت مصطلح العدالة . العدالة تقتضي ان يجري

ميزان دقيق بين ما لي وما علي وما للطرف الاخر وعليه وتتسع طبعا من فرد مع فرد , الانسان قبل ان يتزوج يشعر ان حر لكن بعد ان يتزوج سيشعر ان نصفه صار لغيره كما انه نصف زوجته راح منها إلى زوجها بعد ان ياتيهما اطفال سيشعرون ان النسب المئوية تتقلص ايضا حتى لا يبقى منك لك اكثر من خمسة بالمئة , خمسة وتعسين ستذهب شيء إلى زوجتك شيء لاطفالك شيء لجيرانك شيء لاصدقائك لمحبيك ... الخ . فبالتالي سنجد ان هذا كلما دخلنا في شراكة ونحن بالضرورة سندخل في شراكة مع غيرنا فهذ الشراكة سيقتضي ان تضعف نسب الحرية الفردية مما يجعل بالاخير ان ليس هناك حرية فردية اللهم الا بالافتراض السابق حين يعيش الفرد بمفرده حينئذ لن يحتاج لا إلى حرية ولا إلى مساواة ولا إلى عدالة ولا إلى تعددية ثقافية لان هذه جميعها مشروطة ان يكون مع غيره لكي تحظر هذه المعاني , حظور هذه المعاني هو الذي سيعمل درجة من التفاوضية بينها . هذه هي المسألة الاولى انتقل إلى المسألة الثانية .

المسألة الاخيرة هي عن مفهوم الحرية بوصفه ان الحرية شبه حرية

سأطلقه عبر ثلاث جمل : الانسان ليس حرا , الانسان ليس عبدا , الانسان شبه حر . مصطلح شبه الحر هو لروسو وأشير اليه وانطلق منه . من الواضح انه الانسان من لحظة ميلاده يولد داخل ظروف , بولد داخل ظرف عائلته ان كانت العائلة من طبقة او من طبقة اخرى من ثقافة او من ثقافة اخرى او من وضع اقتصادي او وضع اقتصادي اخر من حالة تعليمية او حالة تعليمية اخرى سيولد داخل هذا الظرف الاجتماعي , سياسي , اقتصادي , تعليمي ... الخ . اولها انهم هم من يمنحونه اسمه والاسم عادة له رمزية يمكن ان يسمونه باسم جده او باسم له قدسية معينة عندهم او فعل معين الاسم نفسه الذي يمنح للانسان هو ظرف يعطونه ظرفا ظرف اجتماعي نفسي .. الخ ملابسه الملابس تخضع ايضا لخيار ذوقية واجتماعية واقتصادية فهو داخل هذا الظرف فايضا هو حينما يشب او يكبر سيدخل في ظروف اخرى ظروف المدرسة ظرف الحارة ظرف البيئة الاجتماعية ظرف الحالة السياسية ظرف والاقتصادية لبيئته وعالمه ظرف ان يكون منتميا إلى ما يسمى الغالبية في مجتمع ينتمي إلى الطبقة التي ممكن ان ينظر اليها انها صاحبة الصوت الاعلى والاغلبية او ينتمي واحدة من الاقليات ايضا اجتماعية فسيكون هو ايضا ذهنيا و فكريا واحساسا ووجدانيا وشعورا وتركيبة ينتمي إلى هذه الناس التي يحمل سمتهم اما بالعلن او في مضمره حتى لو تحرر من هؤلاء وصار ينتمي إلى مجتمع اخر

خاج مجتمعه افكار معينة حزبية او اقتصادية او اجتماعية او ايدولوجية خارج بيئته فهذا معناه انه انتمى إلى بيئة اخرى فيظل منتميا إلى شيء ما حتى لو كان إلى فكرة قديمة إلى وضع تاريخي ممكن يصير من الارسطية , الارسطية الجديدة او الارسطية الحديثة , يكون ارسطو اخر وينتمي إلى عالم هذا العالم الاخر او بالظرورة شبه حر , داخل في ظرف يعني في علاقة ظرفية مع ظرف ما او ظرف حي مباشر او ظرف مفترض او ظرف كان اختياره حتى خيارات الانسان ستخضع بالضرورة إلى ناتجه الثقافي و منتوجه الثقافي ومخزونه الثقافي , العرب يقولون " كل اناء بما فيه ينضح " هو مختزن داخلنا هو الذي سيحدد ايضا خياراتنا فهذه حالة الشبه , شبه حرية . من الصعب ان نفترض ان الانسان الحر بهذا المعنى وان كان نقولها او نرددها لكن لو بدأنا بالاسئلة هل انا حر؟ ليبحث كل واحد منا في نفسه او كل واحدة منا في نفسها سنجد ان الانسان يتقيد . " وقيدت في نفسي هواك محبة ومن وجد الاحسان قيدا تقيدها " المتنبي قالها لان الانسان دائما يقيد نفسه بطريق او باخرى فبالتالي فهو شبه حر . شبه الحر يقتضي ان نعمل جهد كامل لندرك ان الحرية التي تريدها البشرية , البشرية الان تعيش في احتقان شديد يشمل البيئة نفسها من حيث تسونامي , زلازل , براكين , سخونة في الارض , التصحر ... الخ . حالة احتقان تشمل الارض كذلك تشمل الانسان يعني الربيع العربي , تظاهرات في ... , انفجارات في ... , مظاهرات لندن , مظاهرات في وول ستريت , في نيويورك , في كل مكان يعني وضع اليورو وضع الاقتصاد الذي يهدد بانهيارات ضخمة في اوروبا في ايطاليا في اسبانيا في اليونان في قبرص ... الخ , اوضاعنا نحن التي نعيشها ونراها . اذا لم نتمكن من طرح مفهوم التفاوضية الثقافية بمعنى ان نطرح المصطلحات الاربعة متجاورة حرية عدالة مساواة تعددية ثقافية عدالة , اذا لم نطرحها فان الحرية وحدها لن توصلنا للعدالة , المساواة بمفردها لن توصلنا للعدالة , التعددية الثقافية بمفردها لن توصلنا للعدالة كي نصل للعدالة لا بد ان نعبر في تشابك تام وتفاعلية تامة بمعنى التفاعلية التفاوضية ما بين الحرية , المساواة , التعددية الثقافية لكي نصل إلى شيء اسمه العدالة وتحصل التوافقية التفاوضية الثقافية اذا لم يحدث هذا تشابك المصطلحات الاربعة مع بعضها اذا لم يحدث لا شك اننا سنقع مرة اخرى في نسقية المفهوم نسقية مفهوم الحرية أي ان حرية الرجل الابيض ككيان وثقافة في الغرب ستؤدي بهم إلى العولمة وستؤدي بهم إلى اضطهاد او عدم اعتبار الاخرين , حرية فئة حاكمة او طبقة حاكمة او صاحبة راي او صاحبة نفوذ ستؤدي إلى قمع الاخرين وبالتالي تسقط المساواة

واذا سقطت المساواة لن يكون للحرية من معنى فعلي تفاعلي لانها لم تقم على المساواة . لاكريت قال تعريف ممتاز " لقد تنازلنا عن حريات كثيرة كي نكون احرارا بمقدار ما تتنازل عن اجزاء من حرياتك ستكون حرا لانك ستمنح اجزاء منك لغيرك " وفي مقولة اخرى " لو اصر كل واحد على حريته لما بقي حرٌ واحدٌ في هذا الكون " لذلك لابد سواء ان كان الواحد المفرد او الكيان , كيان الدولة , كيان فئة الاجتماعية , كيان مجموعة رجال اعمال , راس مال , المهووس بالارباح الان دون ان يعبأ بما يجري مع الاخرين هذا هو الذي سيقلق الظرف كله على الجميع ولا يبقى احد فشرط المساواة هو شرط اساسي يسبق الحرية ويتلوها هما معا شرطان للتعددية الثقافية او هما مشروطان بالتعددية الثقافية والتي تعني انك تقبل اختلافات و تمايزات غيرك بالضرورة اذا لم تقبلها فغيرك من تستبعده قد يستبعدك او بالضرورة سيستبعدك انت في يوما ما اذا تمكن من ذلك او هو يتربص على الاقل فيسبب باحتقانات . هذه الشرط مجتمعة بادئة بالحرية ومنتهية بالعدالة مرورا بالمساواة والتعددية والثقافية هنا كان فكرتي عن موضوع الحرية بوصفها نسقا ثقافيا ولا يمكن التخلص من نسقيتها الا عبر التفاوضية الثقافية ارجو ان اكون قد اوضحت فكرتي .